كيف لي أن أغفر

بقلم: شيماء طه

أوراقٌ مختومة باسمي – حليمة دلال – تحدّد لي صلاحيّاتي المؤقتة في البلاد. أخذنا التصاريح ودخلنا البلاد، لأول مرة من بعد أكثر من ٥٠ عامًا ... ولن أتكلّم عن هذه الرحلة، فقط دخلنا.[1]

في حيفا، عند دار خالتي، حيث كان لنا دار قربهم أصبح ساكنيه من اليهود، ورفضوا دخولنا لمنزلنا وأغلقوا الباب في وجهنا مع بعض الشتائم التي اعتاد عليها أهل البلد، وليس نحن اللاجئين.

لكن لا بأس، أخبرتنا خالتي أنهم مختلفين، تجد فيهم الصالح والطالح كما فينا، ولا أعلم صدقًا كيف يمكن للإنسان أن يكون صالحًا وسارقًا في آنٍ واحد! لا أعلم كيف لي أن أغفر ما قد مضى وأعتبره جارًا وصديقًا وقد أخذ داري وأرضي وحلمي!

تُحدثنا عن جارتها اليهودية الصالحة التي ستقوم بزيارتنا اليوم وقد أصبحت صديقة لخالتي ووجدت فيها أنسًا في غربتها عن بلدها! فالبلد اليوم غير البلد قبل العام الثماني وأربعين. وإن كنتُ أنا اللاجئة عالقة في العام الثماني وأربعين، خالتي المقيمة في حيفا عالقة في غربة اليوم.

موعد الزيارة حان، وإنها المرة الأولى التي أجلس فيها مع أحد منهم والفضول يعتريني والتساؤلات الكثيرة تتآكل مع أنسجة دماغي: من هم وكيف هم؟ كيف يعيشون وبأي صفة يتحدثون وكيف يتكلمون وماذا يقولون وكيف يفكرون؟ وكيف أصبح بعضهم أصدقاءًا لبعضنا هنا؟ كيف أصبحت هذه الغريبة صديقةً لخالتي؟!

دخلَت وجلَست مستأنسة، كأن الدار دارها. أحضرت لنا الليمون من أرضها التي هي أرضنا أساسًا. يا لحسن الأخلاق وكرم الضيافة عند اليهود! كم أنَّ قيمهم عربية مثلنا تمامًا! يبدو أنّا وُجِدنا سويًا على هذه الأرض فعلًا للسلام!

أختبر الليمون

هل ما زال كما تركناه؟!

هل هو ذاته ليموننا؟!

أعصره فوق الملوخية لأتذوق طعمه

أراقبه قطرة قطرة

هذه الأولى هي قطرة من دم الشهيد

هذه الثانية هي أخرى من دم الجريح

قطرة أخرى من دمع أم الشهيد

---

[1] حليمة محمود دلال، مواليد 1944، حيفا-فلسطين، مقابلة بتاريخ 2022/11/18، دار الوفاء للمسنين-مخيم الجليل، مقابلات أرشيف النكبة

وأخرى من دمع الأسير

وأخرى من أمه ومن حبيبته ومن أخته ومن ابنه وابنته

وقطرة من دمع طفلٍ يحدّق في مقعد الدراسة إلى جانبه فيجده فارغًا إلا من خيال صديقٍ اغتالته رصاصة ممن أخذ ليمون أرضه وهو ذاهب لشراء الخبز والليمون لأمه.

وقطرة من دمع اللاجئ، من دمعي أنا...

وقطرة عرق من فدائيّ يركض متخفيًا عن عدو أخذ أرضه وليمونه

وأخرى من عرق مقاوم يحفر نفقه ليرسمه إما طريقًا لنصره وإما لشهادته

وأخرى من عرق أسيرٍ يحفر نفقه نحو حريّته...

ورأيت قطراتٍ كثيرة... يكفي مرارة، يبدو أن مذاق الليمون هذا غير مذاق ليموننا.

وأختبره مرة أخرى؛ هذه المرّة رائحته

أضيف قشرته إلى الشاي

أضعها فوق المدفئة

أبحث عن رائحة الأرض، ولا أشتم غير رائحة الموت...

يبدو أن رائحة الليمون هذه غير رائحة ليموننا.

وأختبره مرة أخرى؛ هذه المرّة فعاليته

كما اعتدنا في أيّام صباي هنا

أفرك الأكواع والركب كي تتفتح

ولا تتفتح... ويبدو أن جُل ما يتفتح هنا هي جراحٌ ظننت أني طويتها في الخمسين عامًا الماضية

والأسود يزداد سوادًا

والأسود يزداد حقدًا

يبدو أن فعالية الليمون هذه غير فعالية ليموننا.

وأجزم لم يعُد هذا الليمون كما تركناه

هو ليس ذاته ليموننا

وألعنهم ألف مرةٍ ومرة

ليموننا لم يعُد هو، فكيف لي أن أغفر؟!!

هل يختلف طعم الليمون فعلًا أم أن شعوري هو الّذي يعطيه مذاقه؟!

هل يعرف الليمون صاحبه؟

هل يثمر وينضج بإرادته ورغبته أم رغمًا عنه؟

هل يتعايش مثلنا؟ مجبورًا غير مسرور؟!

أظنّه يشبهنا، وكل ما في هذه الأرض يشبهنا

يأبى أن يموت وإن كانت عيشةً غير هنِيّة

كل ما فيها ينكرهم ويذكرهم ويذكرنا من هم أصحاب الأرض الحقيقيين

أظن ليمون الجارة هذه، لو زُرِع في ذات المكان وذات الظروف ولكن ساعدَ ساقيه كان فلسطينيًا لاختلف الطعم فعلًا، لكان ليمونًا مقبلًا على الحياة غير مرغمٍ عليها.
وألعنهم ألف مرة ومرة، حتى ليمون بلادنا أُجبِرَ على هكذا عيشةٍ مُرّة.

وأختبر الحياة هنا وأتحسّس الرفض أو القبول في كل شيءٍ. وأريد أن أطمئن قلبي، أن أمنح روحي السكينة، أأكد لنفسي وأردد لها "لا لم تكن يومًا لهم ولن تكون"، لن يقبلهم شيئ أو أحد. وخالتي مراوغة..تكابر، لا أعلم إن كانت تكذب على نفسها لتهوّن عليها عجزها، أم أنها تكذب علي ظنًا منها أن صورة "السلام الزائف" هذه قد تغريني أو ترضيني...أو تثبت لي أن الحياة ما زالت جميلة في هذه البلاد. وهي لا تعلم أنها بالفعل جميلة ولكن ليست بهذه الصورة، بل بصورة الرفض لا القبول، المقاومة لا الخضوع.
وأظن خالتي نفسها لا تعلم أنها تقاوم، وأنها تجهل أن بقائها هنا بحد ذاته مقاومة. وتجهل أن كل ما ومن في البلاد يقاوم، حتى هذا الليمون يقاوم؛ وهذه الصورة وحدها التي تغريني وترضيني.

وتخبرني خالتي عن جارة يهودية أخرى طيّبة، كما تقول، والشكر لها!! فهي تعترف بحقنا في الحياة! لا أعلم إن كانت تعترف بحقنا في الأرض أم أن هذا الإعتراف خارج مصنّفات إنسانيتها!

تقول أن ابنها طيّار في الجيش الإسرائيلي وقد تلقى أمرًا عسكريًا بقصف مخيّمات فلسطينية في حيفا. لكن أمه رفضت ومنعته عن هذا الفعل اللاإنساني، وعندما عصى أمر أسياده، نفوه وأمه من حيفا إلى عكّا. تروي خالتي القصة وهي تعظم وتمجد جارتها اليهودية هذه، وأنا لا أتفوه بكلمة، أتسائل فقط: ألا تعلم خالتي أن البيت الذي سكنته جارتها هذه في حيفا والآخر في عكا هي بيوت مسروقة وحقوق مسلوبة من أصحابها الأصليين؟! ألا تشمل اللاإنسانية السرقة؟!وإن كان فعل "الامتناع عن القتل" هذا فعلًا إنسانيًا، فإنه بالنسبة لي لا يمكن أن يبرر فعل السرقة، ولا لن أغفر.

حتى وإن غفرتُ أنا، كيف لغيري أن يغفر؟ كيف لمريم البحري أن تغفر وهي تستذكر ما حلّ عليهم من اليهود عربًا أو إفرنجًا كانوا. ابنة الثلاث سنوات ونصف كانت، وما زال المشهد عالقًا في ذهنها بعد أكثر من 70 عامًا، قميصٌ أزرق سماوي ملطخ بدماءٍ فلسطينية سُفِكت بأيدٍ يهودية. هو قميص جدها أبو المصطفى وهي دماؤه وقد كانت روحه التي سلبوها وقد كانت نفسه التي قتلوها مرارًا على دفعات حتى يبقى الأثر على قميصه يذكرهم دومًا أن عليهم ألا يغفروا.[2]

تستذكر مريم الحادثة بتفاصيلها التي شهدت بعضها بعينيها والتي سمعت عن بعضها الآخربأذنيها. في حسبة حيفا، سوق الخضارأو "سوق الميزان" كما تصفه مريم وكما يسميه أهل البلد، الكثير من الأحداث الدامية والتفجيرات التي قام بها اليهود، بوضع المواد المتفجرة إما في براميل النفايات أو بين سحارات الخضرة واختيار اليوم الذي يعجّ فيه السوق بأهله كي يكون عدد الضحايا أكبر وأكثر إرضاءًا لهم؛ وكأن دمائنا تروي عطشهم وكأن أشلاءنا تشبع نفوسهم. في أحد أيام هذه التفجيرات، اختار القدر لجدها أن يذهب للسوق الساعة السادسة صباحًا لشراء الخضار، ولم تكن عادته أن يحضر إليه باكرًا ولكنها سهام الموت متى اختارتك قلت سمعًا وطاعة، لا عصيان مع القدر، ولا عصيان مع الموت في فلسطين تحديدًا. وقد حلّ الإنفجار، ولن أزيد على وصف مريم وصفًا آخر، يكفي ما قالته: "انفجارات مخيفة كانت، لحم بني آدمين، الرووس الإيدين الأشلاء كانت تطلع على السطوح على شرطان الكهربا، على حالة كانت تخوّف".
وقد كان جدها ممن نال نصيبه من هذه التفجيرات، بينما كان يحمّل الجرحى والشهداء ويساعد في نقلهم بالإسعافات والعربايات والخيل (الكرّوسات) هو وابن جاره حفظي الذي كان من سكان نابلس، لم يلاحظ جدها العبد إصابته في خاصرته وظن أن دماءه هي ذاتها دماء الضحايا الذين يحملهم بشرواله العربي الملفوف بالشمِلة. حتى نبّهه حفظي لإصابته، تحسس العبد أبو مصطفى جرحه بيديه ورأى دماءه تسيل بين كفّيه، حتى انقلب اسمرار بشرته اصفرارًا وخارت قواه ونقلوه للمستشفى الحكومي، لإنقاذ من كان المنقِذ؛ والموت الذي كان محتملًا أصبح محتمًا في هذه المقبرة التي كان كادرها الطبي يهودي.

جاءهم خبره مع حفظي، هرعوا إلى المشفى لتفقدّه ولم تكن إصابته كبيرة بقدر ما كان وجعه كبير، إلا أن مسمارًا اخترق كبده وإهمالًا وإذلالًا من الكادر الطبي اليهودي قتله.
كان يصرخ ليلًا طالبًا الماء الممنوع عنه وظلّ يئن وجعًا وعطشًا حتى حلّ الصباح، أحضر أحدهم كوبًا من الماء له، أمسكه بيديه ليشرب وإذ بصفعةٍ على خده يتلقاها من كف ممرضة يهودية -لم أتخيل يومًا كيف لملائكة الرحمة أن يتحولوا شياطينًا حتى سمعت الجملة هذه من مريم البحري- ومن كان شاهدًا على هذا الكف هي ابنته (أم مريم) لحظة دخولها حتى طار عقلها وهي ترى الممرضة اليهودية تصفع أباها الحاج العبد بكل ما أوتيت من قوة، شاط غضبها ودون تفكير رفعت هي الأخرى كفها وردت الصفعة للممرضة اليهويدية (ولو قتلتها ورأتها بأم عينيها ممدة على السرير بدلًا من أبيها لم يكن ذلك ليشفي غليلها ولا غليلي). هذه الصفعة أظنها كانت أشد فتكًا من التفجيرات كافة وأظنها وحدها كافية لأن تقتل العبد أبو مصطفى.

---

[2] مريم أحمد البحري، مواليد 1934 ، الطنطورة-حيفا-فلسطين، أرشيف النكبة
https://libraries.aub.edu.lb/poha/Record/4354

مضت ليلة أخرى مع وجعه وأنينه وحلّ صباحٌ آخر وليلة بعدها قدِم فيها أطباء وممرضين إلى الغرفة المشتركة التي تضم العبد وغيره من الجرحى وأحدهم جاره حسن ستيتيّه الذي روى ما حدث حينها. تقدموا ومعهم حقنة نحو سرير العبد الذي كان يصرخ طوال الليل وجعًا، أغلقوا الستائر، ضاع الصوت، فتحوا الستائر وخرجوا دون كلمة واحد. جاره حسن جنبه ينادي عليه "يا العبد، يا أبو مصطفى" ولكن لا حياة لمن تنادي. قدموا بعدها بلحظات مع النقالة وأخذوه جثةً هامدة ليثبتوا بكل وقاحة وبرادة أعصاب أنهم هم من قتلوه. وعندما حل الصباح وقدم الأهل لزيارته متوقعين أن يروه بحال أفضل، لم يجدوا سوى فراغًا على السرير، حتى أخبرهم حسن ما حدث بالجد العبد. قتلوه مرارًا وتفننوا بإذلاله وتغذوا على وجعه، ومات العبد. وقد حل الخبر على مريم مع القميص الأزرق المثقوب من أثر التفجير والملطخ بدماء جدها مرفوعًا عاليا تلوح به قريبتها وكأنه راية حرب وشهادة، وتنوح وتلطم وتندب وتردد اسمه وقد مات. ولم يمُت هذا المشهد في ذهن مريم ولن يموت.

كيف لروحه أن تغفر؟! كيف لأهله أن يغفروا؟ وكيف لمريم البحري أن تغفر؟ وكيف لحليمة دلال أن تغفر؟ وكيف لي أن أغفر؟ وكيف لنا كلنا أن نغفر؟!